This item is provided to support UOB courses.

Its content may not be copied or emailed to multiple sites or posted to a listserv without the copyright holder's express written permission.

However, users may print, download, or email it for individual use for learning and research purposes only.

هذه الوثيقة متوفرة لمساندة مقررات الجامعة.

ويمنع منعا باتاَ نسخها في نسخ متعددة أو إرسالها بالبريد الالكتروني الى قائمة تعميم بدون الحصول على إذن مسبق من صاحب الحق القانوني للملكية الفكرية لكن يمكن للمستفيد أن يطبع أو يحفظ نسخة منها لاستخدام الشخصي لأغراض التعلم والبحث العلمي فقط.

أعمى بعر . السكرى في ضامات الهزلى

المقامة المضيرية :

تبدأ المقامة المضيرية بوصف مجمل لأبى الفتح الإسكندرى " ***رجل الفصاحة يدعوها فتجيبه . والبلاغة يأمرها فتطيعه*** " (٢٤) ثم تثنى بوصف المضيرة التى يقول عيسى إنها " ***تثنى على الحضارة . وتترجرج فى الغضارة . وتؤذن بالسلامة . وتشهد لمعاوية رحمه الله بالإمامة*** " (٢٥) الجملة الأخيرة تفتح إمكانية للتأويل ، فالمضيرة التى تبدو فاعلا ذا ملامح إنسانية (٢٦) بإمكانها أن تصبح وسيلة لمنح البيعة لمعاوية ، الذى عرف عن مبايعيه أثناء حياة على بن أبى طالب أنهم " ***طلاب اللذائذ وبغاة الشهوات*** " (٢٧). يبدو أن هناك تلميحا واضحا لعلاقة السلطة السياسية الجائرة بالمحكومين ، بحيث تظهر كأنها علاقة سيطرة من خلال التحكم فى الطعام ، بما قد يصل أحيانا إلى حد شراء الضمائر ، هذه السيطرة قائمة فيما يبدو بسبب المضيرة.

فى الدعوة التى حضرها عيسى وأبو الفتح ، يتم وصف المضيرة مرتين ، مرة حال تقديمها وأخرى حال إبعادها نتيجة رد فعل الإسكندرى ، فى المرة الثانية يصف عيسى حدث إبعاد المضيرة بقوله " ***ورفعناها فارتفعت معها القلوب .وسافرت خلفها العيون. وتحلبت لها الأفواه . وتلمظت لها الشفاه. واتقدت لها الأكباد . ومضى فى إثرها الفؤاد*** " (٢٨) المقطع السابق يوضح بقوة عمق أثر المضيرة فى آكليها ، إذ تكاد تملك مجامع نفوسهم ، غير أن رد فعل الإسكندرى قد أثار فضول الجماعة .

تسأل الجماعة أبا الفتح عن أمر المضيرة ، وهنا ينتقل التبئير والرواية كلاهما إلى الإسكندرى، الذى يبدأ فى رواية قصته مع

المضيرة . إن انتقال التبئير والرواية للإسكندرى قد تم فيما يظهر بمحض اختيار الجماعة ، رغم تحذير أبى الفتح لهم بقوله :

" ***قصتى معها أطول من مصيبتى فيها . ولو حدثتكم بها لم آمن المقت وإضاعة الوقت*** " (٢٩)

يبدأ الإسكندرى فى رواية قصته مع التاجر الذى دعاه إلى مضيرة منذ أكثر من عامين ، ومن اللافت أن صاحب الدعوة بدا مصرا على دعوته، يقول الإسكندرى : "***دعانى بعض التجار إلى مضيرة وأنا ببغداد ولزمنى ملازمة الغريم . والكلب لأصحاب الرقيم . إلى أن أجبته إليها*** " (٣٠). من الواضح أن التاجر كان يسعى إلى أكثر من مجرد إطعام أبى الفتح ،ولعل ذلك ماجعل الأخير يتوجس من الدعوة فلا يستجيب لها مباشرة، هنا يبدأ تحول كل من التبئير والرواية تدريجيًا إلى التاجر ، غير أن هذا التحول لا يتم باختيار الطرفين كما حدث بين الجماعة وأبى الفتح ؛ إذ يبدو التاجر وقد اغتصب التبئير والرواية محققًا حالة من السيطرة على السرد تصل هذه السيطرة إلى ما يشبه الاستعباد بالنسبة لأبى الفتح فى نهاية المطاف .

فى الطريق يأخذ التاجر فى الحديث عن زوجته ، ثم عن الحى الذى يسكنه فالحديث عن داره ، يتم ذلك كله بصورة تفصيلية يتبادل فيها إيقاعا الوقفة Pause والمشهد Scene الظهور، بما يحقق إحساسًا عميقًا بثرثرة التاجر التى تكاد توقف حركة الأحداث. تلك الثرثرة التى تبدو استبدادًا، هى ما حذر أبو الفتح جماعة عيسى منه قبل بدء حديثه. وفى الوقت نفسه يبرز الإيقاع وتفاهة حديث التاجر المأزق الذى وقع فيه أبو الفتح رجل الفصاحة التى لا تسعفه للمفارقة فى هذا الموقف. تقول فدوى دوجلاس :

" وتشخيص أبى الفتح وتمييزه بعبارات حتى ولو كانت قريبة من هذه العبارة يعتبر شيئًا نادرًا تمامًا ... فالصورة التى تزخر بها هذه العبارة ، هى صورة تدل على القدرة فأبو الفتح يدعو الفصاحة ويأمر البلاغة ، فتجيبانه ... وهذه العلاقة بالتحديد هى التى تنقلب وتتحول ، فليست الفصاحة والبلاغة فقط هما اللتان كانتا الوسيلة فى خيبة أبى الفتح ، بل إننا نستطيع أن نقول ... إنه يدعوهما فلا تجيبانه ، ويأمرهما فلا تطيعانه" .[٣١]

يبدو أبو الفتح أسيرًا للتاجر الذى يحول الإسكندرى إلى مجرد مستقبل لحديثه المنطلق بحرية شديدة ، تقوم حرية التاجر فيما يظهر على سلب حرية أبى الفتح . حرية التاجر لا تنفصل عن رغبته فى السيطرة والتحكم ، إذ يلزم لتحقق تلك الحرية أن يسيطر تمامًا على عقل أبى الفتح ، ويتحكم بصورة شديدة فى قدرته التى وصفه بها عيسى فى أول المقامة. تتوافق تلك الرغبة فى السيطرة مع وضع التاجر فى مركز المقامة على أكثر من مستوى، فهو ينتزع التبئير والرواية ، وفى الوقت نفسه يتم رسم الفضاء بما يؤدى إلى وضع دار التاجر فى المركز من أشرف أحياء بغداد ، التى – أى بغداد – ربما مثلت مركز الفضاء الكونى الذى تصوره المقامات . [٣٢] يقول التاجر :" ***يا مولاى ترى هذه المحلة . هى أشرف محال بغداد يتنافس الأخيار فى نزولها . ويتغاير الكبار فى حلولها . ثم لا يسكنها غير التجار . وإنما المرء بالجار . وداري فى السطة من قلادتها . والنقطة من دائرتها.***" [٣٣]

على مستوى آخر يتم رسم صورة منفرة لشخصية التاجر ، إنه ليس فقط ثرثارًا مستبدًا، بل مستغل محتال ؛ يتضح ذلك من طريقة حصوله على الدار والعقد والحصير[٣٤]، ومن الملاحظ أن احتيال التاجر قد اصطبغ بطبيعة

شخصيته اللزجة المستبدة؛ فهو احتيال يختلف أيما اختلاف عن احتيال الإسكندرى الذى يرتدى حلة من الظرف والفكاهة فى معظم المقامات.

يستمر التاجر فى ثرثرته المستبدة ، وعند لحظة معينة تجيش نفس الإسكندرى الذى يمد ثرثرة التاجر على استقامتها [٣٥] ليصل فى النهاية إلى أن " ***هذا خطب يطم . وأمر لا يتم***" [٣٦] هنا يبدو الإسكندرى وقد شعر بطبيعة الثمن المدفوع فى مقابل المضيرة التى أصبح يشك فى حصوله عليها أصلا ؛ إذ يمكن تصور الإسكندرى طوال حديث التاجر وقد تنازعته رغبتان، الأولى فى الطعام ، والثانية فى التخلص من استبداد التاجر وسيطرته، وفى اللحظة التى قام فيها الإسكندرى معتزما الهرب ، كان قد أصبح مفعما برغبته فى الحرية بعد أن وصل الأمر إلى ما يشبه الاستعباد ، غير أن التاجر يصر على استمرار سيطرته واستبداده، إذ يبدو أنه استشعر فى طلب أبى الفتح قضاء حاجته نية الأخير فى الهروب ، فينطلق التاجر لفوره فى حديث مطول عن الكنيف ، هذا الحديث ربما تعدى مجرد كونه ثرثرة عادية ، إنه يتضمن تهديدا ضمنيا للإسكندرى يقول التاجر: " ***يا مولاى تريد كنيفا يزرى ببربيعى الأمير. وخريفى الوزير . قد جصص أعلاه. وصهرج أسفله وسطح سقفه وفرشت بالمرمر أرضه. يزل عن حائطه الذر فلا يعلق . ويمشى على أرضه الذباب فيزلق . عليه باب غيرانه من خليطى ساج وعاج . مزدوجين أحسن ازدواج . يتمنى الضيف أن يأكل فيه***" [٣٧] لا يوجد فى المشهد ضيف سوى الإسكندرى الذى فيما يبدو قد أدرك التهديد ، فقام لفوره معلنا تمرده ، غير أن التاجر لا يستسلم بسهولة لانفلات أبى الفتح من سيطرته ، فيعدو وراءه مناديا عليه بقوله : " ***يا أبا الفتح المضيرة***" [٣٨] إن إضافة اسم أبى الفتح للمضيرة ربما أكد ما نذهب إليه ، من أن العامل الأساسى فى سيطرة التاجر على

الإسكندرى كان المضيرة ، أو لنقل الطعام الذى يتحكم فيه التـــاجر . يعلـــن التاجر سلاحه بذكر اسم المضيرة ، ويظن الصبيان أن المضيرة لقـــب لأبـــى الفتح فيصيحون كصياح التاجر . المشهد السردى هنا يبدو صراعا بين التاجر والصبيان من ناحية ، والإسكندرى من ناحية أخرى؛ يريد التاجر أن تســتمر سيطرته ويؤيده الصبيان عن جهل ، فى حين يرفض الإسكندرى هذه السيطرة لاجئا فى نهاية المطاف إلى العنف لفك الحصار عن نفسه يقول : " ***فرميـــت أحدهم – أى الصبيان – بحجر من فرط الضجر . فلقى رجل الحجر بعمامته. فغاص فى هامته . فأخذت من النعال بما قدم وحدث . ومن الصفع بما طاب وخبث . وحشرت إلى الحبس . فأقمت عامين فى ذلك النحس .*** " (٣٩).

إن عدم استسلام أبى الفتح لسيطرة التاجر قد أدى به إلـــى الضـــرب فالسجن لمدة عامين. ويمكن اعتبار المضيرة سببا فى سلب حرية الإسكندرى لعامين ، إذ تبدو المضيرة أداة فاعلة فى استمالة الناس واستعبادهم . ومن هنا يمكن أن يتماثل التاجر مع السلطة السياسية الجائرة التى تسلب الناس حريتهم وقدرتهم على الاختيار ، من خلال التحكم فى الطعام أو الرزق ، بما يستدعى مثل معاوية الذى ضربه عيسى فى بداية المقامة . (٤٠)

فى إطار أحداث المقامة يبرز دور المروى عليه ، المتمثل فى عيسى وجماعته ، فى تأكيد التأويل السابق ، إنهم جماعة كادت أن تستسلم لســـطوة المضيرة لولا صيحة أبى الفتح التى تمثل ما يشبه تنبيها مفاجئا لهم . ويمكـــن تخيل رد فعل المروى عليهم وقد أخذ فى التحول تدريجيا مـــن الضـــد إلـــى الضد؛ فبعد أن كانت قلوبهم ترتفع مع ارتفاع المضيرة، يحدث بالتدريج مـــا يشبه الوعى العميق بموقفهم حيالها، بما يؤدى إلى قبولهم عذر أبى الفتح بـــل إنهم ينذرون نذره فى مقاطعة المضيرة ، مختتمين المقامة بجملة لافتة تؤيـــد التأويل السابق حين يقولون : " ***قديما جنت المضيرة على الأحرار . وقدمـــت الأرازل على الأخيار*** " (٤١).

المقامة الحلوانية :

إذا كان الإبداع والمعرفة فى مجال اللغة وفنونها يمنحان المبـــدع تقديرًا وسلطة اجتماعيين، فى الفترة التى تمثل أفقًـــا حضاريًـــا لمقامـــات الهمذانى، فإن أبا الفتح الإسكندرى يبدو على العكس من ذلك، إنه مـــهمش اجتماعيًا على الرغم من قدرته الإبداعية والمعرفية التى تلـــح المقامـــات فى تأكيدها. وربما كانت تلك المفارقة هى سر نقمة أبى الفتح الواضحـــة على الزمن وأهله ؛ فهو يؤمن – وكذلك عيسى – بأن وضعيتـــه الســـابقة هى من قبيل الخلل الذى أصاب المجتمع وقيمه .

فى المقامة العراقية يدور الحوار التالى بين عيسى والإســـكندرى : " ***فقلت (أى عيسى) وما لك مع هذا الفضل . ترضى بهذا العيش الرذل. فأنشأ يقول :***

بؤسا لهذا الزمان من زمن . كل تصاريف أمره عجـــب
أصبح حربا لكـــل ذى أدب كأنما ساء أمـــه الأدب " (٤٢)

وفى المقامة الحمدانية يدور الحوار التـــالى بينـــهما : " ***أنـــت (أى الإسكندرى) مع هذا الفضل تعرض وجهك لهذا البذل . فأنشأ يقول :***

ســـاخف زمانـــك جدا إن الزمـــان ســـخيف
دع الحميـــة نســـيا وعـــش بخـــير وريـــف
وقـــل لعبـــدك هـــذا يجيئنـــا برغيـــف (٤٣)